قراءة في مفهوم الاغتراب

Read the concept of alienation

أ.سعاد مريمي
أستاذة التربية الإسلامية بسلك الثانوي التأهيلي
باحثة في سلك الدكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الأول بوجدة (المغرب)
البريد الإلكتروني: souad.m2011@hotmail.fr

تاريخ الاستلام: 2019/10/22 تاريخ القبول: 2019/11/26 تاريخ النشر:2020/06/30

ملخص:

تعد ظاهرة الاغتراب إحدى السمات الأساسية التي تميز العصر الحالي، وإحدى القضايا التي تعبر عن أزمة الإنسان المعاصر، ومن أكبر الظواهر التي يقف الإنسان أمامها عاجزا حائرا، خصوصا في ظل التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي تعرفها المجتمعات، وهي قضية تشكل تحديا للشعوب من أجل مواجهتها، ولن يتأتى ذلك إلا بالإحاطة بمفهوم الاغتراب من أجل التصدي له أو على الأقل التقليل من حدته، وتأتي هذه الورقة البحثية كمحاولة للتأصيل لمفهوم الاغتراب من خلال تطور المصطلح وتنوع مدلولاته تبعا للمذاهب الفكرية المختلفة.

الكلمات المفتاحية: الاغتراب –الإنسان المغترب –مفهوم الاغتراب –قراءة .

Abstract:

The phenomenon of alienation is one of the main features that characterize the present era. It is one of the issues that reflect the contemporary human crisis and one of the most difficult phenomena facing human beings, especially in light of the economic, social, political and cultural transformations defined by societies. This paper is an attempt to institutionalize the concept of expatriation through the development of the term and the diversity of its meanings according to different intellectual doctrines.

Key words :Alienation - The phenomenon of alienation - the concept of alienation.

مقدمة:

أصبحت مشكلة الاغتراب حالة مميزة للإنسان في المجتمع الحديث، واستطاعت أن تفرض نفسها بقوة على كثير من مجالات النشاط الثقافي في الوقت الحالي، وتظهر كموضوع أساسي في كثير من الكتابات والبحوث سواء الاجتماعية منها أو الأنتروبولوجية، أو النفسية، أو الفلسفية أو السياسية. وأصبح الاغتراب موضوعا محوريا و"بدأ في مختلف تنوعاته ينتشر من خلال الفكر النقدي التحليلي بشكل خاص في مختلف الثقافات البارزة، ولا يستثنى من ذلك الثقافة العربية، إذ نجد بعض بذوره لدى كثير من المفكرين العرب، تعبيرا عن إحساسهم بالعجز الداخلي في علاقاتهم بالمجتمع والمؤسسات، كما بالعجز الخارجي باعتبار أن مختلف البلدان العربية بدأت تخضع بعد نيل الاستقلال لهيمنة خارجية(بركات، 2006:35). وهذا المصطلح يعد من أكثر المصطلحات تداولا في الكتابات التي تعالج مشكلات المجتمع الحديث، خصوصا في اللغات الأجنبية، "وإن لم يظهر في اللغة العربية حتى الآن سوى عدد قليل جدا من الكتب والمقالات على الرغم من أن الاغتراب يعد في نظر الكثير من المفكرين والكتاب من أهم السمات المميزة للعصر، وإحدى النقاط الجوهرية التي يدور حولها الصراع بين الاتجاهين الماركسي والرأسمـــالي(أبوزيد،1979: 4). وسنحاول من خلال هذا المبحث أن نعرض لتطور هذا المصطلح من خلال تصورات المفكرين ونظرياتهم.

المعنى اللغوي للاغتراب:

الاغتراب: في اللغة العربية لفظة مشتقة من الجدر الثلاثي (غ ر ب)، وقد جاء في لسان العرب "الغرب: الذهاب والتنحي عن الناس (بن منظور،1300هـ،638)، كما نجد الغرب في القاموس المحيط بمعنى "النوى والبعد كالغَربة والغُربة والاغتراب(آبادي،2005: 119)، نقول "غربت الشمس تغرب غروبـــا مُغَيْرِبانـــا: غابت في المغرب. وأمـــا "غرَّبَه وأغرَبَه فهي تعني: نحَّاه، وفي الحديث: أن النبي ، أمر بتغريب الزاني سنة إذا لم يُحصن، وهو نفيه عن بلده، والاغتراب والتغرُّب كذلك نقول منـــه: تغرب واغترب، وقد غرَّبه الدهر،

ورجـــل غُرُبٌ، بضم الغين والراء، وغريب: بعيد عن وطنـــه، الجمع غربـــاء والأنثى غريبة(ابن منظور،1300هـ: 638) .

أما في اللغات الأجنبية فكلمة اغتراب هي مقابلة لفظة Aliénation في اللغة الفرنسية، ولفظة Alienation في اللغة الإنجليزية، ولفظة Entfremdung في اللغة الألمانية، وقد "اشتقت كل من الكلمة الإنجليزية والفرنسية من الكلمة اللاتينية Alienatio وهي اسم مستمد من الفعل اللاتيني Alienare الذي يعني نقل ملكية شيء ما إلى آخر، أو يعني الانتزاع والإزالة، وهذا الفعل مستمد بدوره من كلمة أخرى هي Alienus أي الانتماء إلى شخص آخر، أو التعلق به، وهذه الكلمة الأخيرة مستمدة في النهاية من اللفظ Alius الذي يدل على الآخر سواء كاسم أو كصفة(حماد،2005: 61).

من خلال تتبع معاني لفظ الاغتراب، سواء في اللغة العربية أو اللغات الأجنبية، يتبين أنه افتعال من الغربة، وأهم معانيه: النزوح عن الوطن ومفارقته، والبعد، والذهاب، والنوى، والتنحي عن الناس والانفصال عنهم، والنفي، والنقل، والانتزاع، والإزالة... وغيرها من المعاني التي تحيل على الانتزاع والخروج عن الأصل نحو آخر بعيد أو غريب.

أ. المداخل الفكرية حول مفهوم الاغتراب:

يعد مفهوم الاغتراب من أكثر المفاهيم الإنسانية استخداما وشيوعا في مجال العلوم الإنسانية، ومن أكثرها قدرة على وصف مظاهر البؤس الإنساني والقهر الاجتماعي عبر علاقة الإنسان بالطبيعة والمجتمع، وهو فوق ذلك يشكل مدخلا منهجيا مميزا تعتمده العلوم الإنسانية في تحليل الظواهر الاستلابية في واقع الحياة الاجتماعية.

ومصطلح الاغتراب هو "مصطلح شديد العمق، وعريق الأصل، ضارب الجدور إلى فجر البشرية جمعاء، إذ يعود إلى تلك اللحظة المتعالية التي غربت فيها الجنة بنعيمها السرمدي عن آدم عليه السلام، ونزل الأرض (مغتربا) عنها وعن المعية الإلهية التي كان

يحظى بها قبل عصيان ربه. فتلك هي بحق وصدق أولى مشاعر الاغتراب (خليفة، 2003: 19).

وقد ورد مفهوم الاغتراب في الكتابات اللاهوتية الأولى، العهدين القديم والجديد، ليعبر عن معنيين:

- ✓ "المعنى الأول: يدل على انقطاع الصلة بين الإنسان والله، وحدوث الانفصال بينهما نتيجة لإغراق الإنسان في المعاصي والخطايا...
- ✓ المعنى الثاني: الصنمية والاغتراب عن الذات، وربما تعد فكرة الصنمية فكرة جوهرية في تاريخ مفهوم الاغتراب، فالصنم ما هو إلا خلق الإنسان، وفي عبادة الإنسان له انفصال للخالق عن ذاته وفقدانه لها(مساعدية،2013: 17). بمعنى أن الإنسان يغترب عن ذاته حتى يصل درجة الظن بأن المخلوق في الأصل هو الخالق.

الاغتراب في الفكر العربي:

حظي مفهوم الغربة والاغتراب باهتمام العلماء والمفكرين العرب المسلمين، خصوصا المتصوفين منهم، ولعل أهم من خصه بالدراسة أبو حيان التوحيدي (922-1023) ، بعد أن عاش حالة الاغتراب، حيث أمضى حياته بائسا فقيرا منبوذا، يجوب البلدان ويقصد الأمراء، لكنه لم يحظ بطائل مما جعله يحقد على الناس ويريد الانتقام منهم، فأقدم على حرق مؤلفاته لكي لا يتركها لأناس قال عنهم في رسالة أرسلها إلى صديق له كان قد لامه على فعلته: ما صح لي من أحدهم وداد، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ(مساعدية، 2013: 52). وقد تحدث عن الغربة والغريب في كتابه (الإشارات الإلهية) في رسالة جاءت عبارة عن إجابة لسائل عن الغريب والغربة، جاء في بعض فقراتها: "أغرب الغرباء من صار غريبا في وطنه، وأبعد البعداء من كان قريبا في محل قربه... والغريب من إذا ذَكر الحقَّ هُجِر، وإذا دعا إلى الحق زُجِر، والغريب من إذا أسنَد كُذِّب، وإذا تظاهر عُذِّب، الغريب من إذا امتار لم يُمَر، وإذا قعد لم يُزر...(التوحيدي،1982 : 83).

وقد استمد التوحيدي آراءه من خلال تجربته الحياتية، حيث اغترب في وطنه، ثم اغترب عنه، وانتهى إلى الاغتراب عن ذاته والتصوف باعتزاله الحياة والناس والتوجه إلى الله، وقد "تحدث التوحيدي في هذه الرسالة عن الاغتراب في وطنه والاغتراب عن وطنه ثم الاغتراب عن الذات (التصوف)، ورأى بأن الاغتراب عن المجتمع هو أشد أنواع الاغتراب قساوة وإيلاما(مساعدية، 2013 : 56).

كما جاءت فكرة الغربة والاغتراب في كتابات عبد الله بن محمد الأنصاري الهَرَوي (1006-1089) ، الذي عرف الاغتراب في كتابه (منازل السائرين) بأنه "اسم يشار به إلى الانفراد عن الأكفاء، وهو ثلاث درجات:

- الدرجة الأولى: الغربة عن الأوطان، وهذا الغريب موته شهادة، ويقاس له في قبره من متوفاه إلى وطنه، ويجمع يوم القيامة إلى عيسى بن مريم عليه السلام.
- والدرجة الثانية: غربة الحال، وهذا من الغرباء الذين طوبى لهم، وهو رجل صالح في زمان فاسد بين قوم فاسدين، أو عالم بين قوم جاهلين أو صديق بين قوم منافقين(الهروي، 1988 : 109). وهو ما عبر عنه ابن قيم الجوزية بغربة أهل الله وأهل السنة، وهي الغربة التي مدح الرسول أهلها في حديثه الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، والذي قال فيه: بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا فطوبى للغربـــــاء(مسلم،2006: 77) وأهل هذه الغربة هم أهل الله لأنهم "لم يأووا إلى غير الله، ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ، ولم يدعوا إلى غير ما جاء به وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم(ابن القيم،2003 : 186). إن المؤمن الغريب الذي يتحدث عنه الرسول، هو الذي رزقه الله بصيرة وفقها وعلما وفهما في وقت غرق الناس فيه في الأهواء والبدع والضلالات، "فهو غريب في دينه لفساد أديانهم، غريب في تمسكه بالسنة لتمسكهم بالبدع، غريب في اعتقاده لفساد عقائدهم، غريب في صلاته لسوء صلاتهم، غريب في طريقه لضلال وفساد طرقهم، غريب في نسبته لمخالفة نسبهم، غريب في معاشرته لهم، لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم (ابن القيم،2003 : 186-189).

- والدرجة الثالثة: غربة الهمة، وهي غربة طلب الحق، "غربة العارف، لأن العارف في شاهده غريب، ومصحوبه في شاهده غريب... فغربة العارف غربة الغربة، لأنه غريب الدنيا وغريب الآخرة (الأنصاري،1988 : 109).

أما ابن قيم الجوزية (1292-1350) ، فقد خص في كتابه (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين)، والذي شرح فيه كتاب منازل السائرين للأنصاري "بابا خاصا بالغربة من منحاها الصوفي والديني، فتكلم عن الغرباء وأصنافهم ودرجاتهم، والغربة ووحشتها، حين تكون موحشة، وحين تكون مؤنسة، ويعتبر ابن القيم بما كتبه عن الغربة والاغتراب من أوائل الذين تعمقوا في هذا الموضوع(الفيومي،1988: 85)، وقد كان ما كتبه عبارة عن تعمق وتنظيم وتقسيم لما كتبه بعض المتصوفين من خواطر تشير إلى معاناتهم في حياتهم الروحية وحياتهم الاجتماعية، وقد قسم بدوره الاغتراب إلى ثلاثة أنواع:

- النوع الأول: غربة أهل الله، وقد أشرنا إليها سابقا في شرح غربة الحال التي تحدث عنها الأنصاري.

- النوع الثاني: وهي غربة مذمومة، وهي غربة أهل الباطل وأهل الفجور بين أهل الحق، فهي غربة بين حزب الله المفلحين، وإن كثر أهلها فهم غرباء على كثرة أصحابهم وأشياعهم، وأهل وحشة على كثرة مؤنسهم.

- النوع الثالث: غربة مشتركة، لا تحمد ولا تذم، وهي الغربـــة عن الوطن، فالناس كلهم في هذه الدنيا غرباء، فإنها ليست لهم بدار مقـــــام، ولا هي الدار التي خلقوا لها(ابن القيم، 2003: 190). وقد قال النبي لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل(البخاري،2002 : 1599).

وإذا كان هؤلاء المفكرون قد عالجوا الاغتراب على أنه ضرب من ضروب الانفراد، إما بالجسم وإما بالقصد والحال، وإما هما معا، حيث زعموا أن "إدراك السعادة القصوى قد يكون بلا تعلم بل بالتفرغ فإن الفيلسوف الأندلسي المسلم ابن بـــــــــاجة (1080-1138) يرى أن "كل دعوة تلغي العقل أو تحد من نشاطه هي دعوة إلى الشقاء

والاغتراب، لأنها تلغي أهم صفات الإنسان في الإنسان: العقل والحرية، فهو يدعو إلى تعزيز العقل ومحاربة الميول الصوفية، لأنه يرى أن المتصوفين جعلوا الدين في يدي الساسة، ووسيلة من وسائلهم ليبرروا طغيانهم، ومن هنا ينشأ الاغتراب نتيجة شعوره بالخضوع لسلطة استبدادية تفرض عليه الطاعة العمياء، وتعزله عن سلطان العقل، وبذلك يدخل في عملية تغريب ذاتي، أي أن شخصيته تغترب عنه إلى سلطة القبول بكل ما تقرره بمعزل عن عقله، بل وضد عقله. ومثل هذا الخضوع من شأنه أن يثير في الإنسان شعورا بالقهر، إن الإنسان الخاضع لقوانين سلطة أخرى تفرض عليه من الخارج هو إنسان مغترب عن ذاته، ويخرج عن كونه إنسانا، ويصبح كأنه شيء موضوع منفعل ليس بفاعل، جامد بلا روح، لأنه يحول بينـــه وبين تحقيق وجوده الأصيل بوصفه إنسانا حرا عـــــاقلا (الفيومي، 1988: 131-132).

لقد عاش ابن باجة غربة تمثلت في تعايشه مع واقع اجتماعي غريب عنه وعن أفكاره ومفاهيمه التي كانت تختلف تماما عن الأفكار السائدة في الأندلس، "فهو في داخله ينشر صورة المجتمع العادل الذي تأتلف فيه القيم الإنسانية العليا، وحين يفتقدها في حياة مجتمعه وقد أنهكته الصراعات الطائفية والقبلية، فإنه يعود إلى ذاته وينكفئ عليها محتميا بها، وقد صدمه الواقع الذي تسيره أفكار غريبة عن قيم الإسلام العليا التي يؤمن بها، ويجد فيها ملجأه الذي يأوي إليه، لينسجم مع فكره وشعوره، مدبرا أمر نفسه متوحدا معها(الفيومي،1988: 107).

الاغتراب في الفكر الغربي:

رغم قدم هذا المفهوم، فإنه "يكاد ينعقد إجماع الباحثين على أن هيجل Hegel (1770-1831) هو أول من استخدم في فلسفته مصطلح الاغتراب استخداما منهجيا مقصودا ومفصلا، إلا أن الدارسين لتاريخ تطور المصطلح يرون أنه قد يكون استمد معناه من الفلاسفة السابقين له أو المعاصرين له، ذلك أن الكلمة اللاتينية Alienatio وردت في سياقات مختلفة صنفها محمود رجب إلى ثلاثة رئيسية:

- "سياق قانوني: بمعنى انفصال الملكية عن صاحبها وتحولها إلى آخر.
- سياق نفسي-اجتماعي: بمعنى انفصال الإنسان عن ذاته ومخالفته ما هو شائع في المجتمع.
- وسياق ديني: بمعنى انفصال الإنسان عن الله ، وهو(رجب، 1988 : 9 -10)، المعنى نفسه الذي تضمنته الكتابات اللاهوتية.

وقد تعرض محمود رجب في كتابه الاغتراب سيرة مصطلح، لتاريخ مصطلح الاغتراب والمسار الذي سلكه حتى وصل إلى ما هو عليه الآن من شيوع وانتشار في الحياة الثقافية المعاصرة، وقسم مسيرته إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل هيجل:

استعمل رواد نظرية العقد الاجتماعي مصطلح الاغتراب عندما تحدثوا عن مسألة انتقال الإنسان من حالة الطبيعة إلى حالة الاجتماع البشري (الحالة الاجتماعية)، حيث "اعتبر كل من توماس هوبس وجون لوك أن الإنسان تخلى تاريخيا عن حقه الطبيعي بالعيش الحر من أجل انتقال السيادة منه إلى المجتمع السياسي أو الدولة، وتكلم جون جاك روسو عن تنكر الإنسان لذاته بتسليمه سيادته في الحياة الطبيعيـــة، معتبرا أن مثل هذا النوع من الاغتراب أمر عبثي وبلا معنى إن لم تنتقل السيـــادة إلى المجتمع نفسه(بركات،2006: 37)، ويعد روسو من أبرز الفلاسفة الذين تناولوا فكرة الاغتراب، حيث "ورد في كتابه العقد الاجتماعي لفظ Aliénation معبرا به عن تقديم الفرد ذاته للجماعة لتوجه بإرادتها وتصبح جزءا منها، وهو بهذا المعنى عمل إيجابي يضحي فيه المرء بذاته لأجل مصلحة الجماعة، وبالتالي مصلحته، لكن ورد الاغتراب بمعنى آخر في كتابات روسو النقدية للحضارة، ولكن هذه المرة بمعنى سلبي، حيث يرى بأن الحضارة قد سلبت الإنسان ذاته، وجعلته عبدا للمؤسسات الاجتماعية ليصبح ذاتا أخرى تتحكم فيها إرادة خارجية عنه(مساعدية، 2013 : 20).

وسواء أكان الاغتراب إشكالا أم فكرة أم كلمة فإنه كان موجودا في التراث السابق لهيجل، ومع ذلك فقد "تحول الاغتراب على يديه من مجرد إشكال يعانيه الإنسان في عصور الأزمة والقلق، أو مجرد فكرة ترنق في أذهـــان بعض المفكرين، أو كلمة ترد في هذا المؤلف أو ذاك، تحول إلى (مصطـــلح) فني و(مفهوم) دقيق يطلق عن قصد مقصـــود(رجب،1988 : 13)، حتى أطلق عليه (أبو الاغتراب).

المرحلة الثانية: الاغتراب عند هيجل Hegel (1770-1831):

استعمل هيجل في كتاباته في اللغة الألمانية كلمتين للتعبير عن فكرة الاغتراب هما Entfremdung وEntäusserung، فكلمة Entfremdung، هي من "fremd (الغريب)، وفي أواخر العصور الوسطى في ألمانيا تشير هذه الكلمة إلى من يأخذ أو يسرق أمتعة شخص آخر، كما تشير إلى الاغتراب العقلي لا سيما الغيبوبة أو الذهول، لكنها أشارت فيما بعد إلى غربة الأشخاص بعضهم عن بعضأما كلمة Entäusserung، فهي من Entäusen (يجعله خارجا أو خارجيا) و"تعني تنازل، استسلام، تجرد... أي تنازل المرء الإرادي عن ملكيته الخاصة(إنوود، 2000: 79).

وقد تناول هيجل الاغتراب في مؤلفات الشباب، وهي مجموعة الأبحاث والدراسات التي كتبها هيجل في الفترة ما بين 1790 و 1800، وهي مؤلفات تدور حول قضيتين أساسيتين هما: الحرية والاغتراب، و"المقصود بالحرية عند هيجل امتلاك الإنسان لذاته امتلاكا تاما، أما الاغتراب فهو على النقيض من الحرية، إنه يعني انفصال الإنسان عن ذاته وأفعاله وعن الآخرين انفصالا تصبح معه كل هذه الأشيـــــاء غريبة عنه، وقد يقصد عدم امتلاك الإنســـان لذاته نتيجة ضيـــاعها واستلابها على نحو يؤدي إلى السقوط في العبوديـــــة(حماد،2005: 79-80) . وقد ارتبطت مناقشة هيجل للحرية والاغتراب بنقد الديانتين المسيحية واليهودية اللتين يعتبر أنهما تؤديان إلى تغريب الإنسان عن ذاته، حيث يفيد الاغتراب عملية تحول الإنسان من شخصية أبسط إلى شخصية أغنى، بمعنى أن العقل المطلق قد خلق الطبيعة والإنسان، فطرح جزءا من نفسه وصار هو نفسه هذا

الجزء، من خلال سيطرة العقل المتناهي –الذي هو الإنسان- على الطبيعة، وليس التاريخُ إلا محاولة الإنسان الدائبة لمعرفة الطبيعة والسيطرة عليها(الحنفي،2003: 80)، وهو بهذا المنطلق قد عرف الاغتراب على أنه "حالة اللا قدرة أو العجز التي يعانيها الإنسان عندما يفقد سيطرته على مخلوقاته ومنتجاته وممتلكاته، فتوظف لصالح غيره بدل أن يسطو هو عليها لصالحه الخاص. وبهذا يفقد الفرد القدرة على تقرير مصيره والتأثير في مجرى الأحداث التـــاريخية بما فيها تلك التي تهمه وتسهم بتحقيق ذاته وطموحاته(بركات، 2006: 37)، هذه الرؤية التي يقدمها هيجل للاغتراب في مؤلفات الشباب هي رؤية تركز على جانبه السلبي، لكن فيما بعد وفي المحاضرات التي ألقاها في جامعة ينا في الفترة ما بين 1802 و1804، "يتحدث هيجل عن اغتراب العمل بجانبيه الإيجابي والسلبي، فهو يرى أن الإنسان يتغلب على الاغتراب بين العالم الموضوعي والعالم الذاتي عن طريق العمل، والإنسان يستطيع بفضل العمل أن يقضي على وجوده الذري الفردي ليتحول إلى وجود كلي(حماد، 2005: 84).

إن الإنسان في نظر هيجل، هو ذو طبيعة مزدوجة متمثلة في الفردية والكلية، والمقصود بالكلية هي تلك البنية الاجتماعية التي يبتدعها عقل الإنسان، ويعتبرها شيئا عقليا، وتكون علاقته بها علاقة وحدة كاملة فورية وتلقائية. ويشير هيجل إلى إمكانية نشوء شقاقات ينتج عنها عودة الإنسان إلى ذاته والكف عن التطابق مع البنية الاجتماعية لتحقيق فرديته المتميزة، وتصبح بالتالي علاقته مع تلك البنية علاقة تنافر، وينشأ عن ذلك عدم تطابق في الوعي بين البنية والذات، فتكون النتيجة في الأخير نظرة الفرد إلى البنية على أنها شيء آخر مستقل عنه، وهذا الانفصال بين الذات والبنية الاجتماعية هو أحد معاني الاغتراب عند هيجل(مساعدية، 2013 : 25).

يتبين من خلال هذا التصور الذي يقدمه هيجل للاغتراب، أن عالم الأشياء الذي هو من خلق الإنسان، أخذ يعلو عليه ويستقل ويبتعد عنه، فأصبح عاجزا عن السيطرة عليها والتحكم فيها، ولم يعد قادرا على تحقيق وجوده أو التعرف على ذاته من خلالها، ونتيجة

لما سبق "يكون الإنسان مغتربا بقدر ما تزداد الهوة بينه وبين المؤسسات والعالم(بركات، 2006 : 38).

هذا الاغتراب عن البنية الاجتماعية يفرض على الإنسان نوعا آخر من الاغتراب، هو الاغتراب عن الذات، فحين يفتقد الفرد إمكانية انسجامه مع كليته أي طبيعته الاجتماعية، فإن في ذلك نوعا من التغريب عن طبيعته الجوهرية، إذ الوعي يغترب عن عالم الطبيعة والمـــــادة، ولا يمكنه تجاوز هذا الاغتراب إلا عن طريق تنمية المعرفة بالذات(مان ، 1999 : 48)، هذه المعرفة تساعد الذات على إيجاد حقيقتها الأساسية، إلا أنه للتغلب على هذين النوعين من الاغتراب يرى هيجل أن الوعي الفردي يستعيد وحدته التي فقدها مع البنية الاجتماعية وذلك بالاتحاد مع متطلبات الكلية، هذا الاتحاد الذي ينتج عنه حتما اغتراب عن الذات، والقيام بالتخلي عنها وتسليمها(مساعدية،2013: 26)، وهو نفسه معنى الاغتراب عند أصحاب نظرية العقد الاجتماعي الذي سبق التطرق إليه.

إن هيجل قد استعمل مصطلح الاغتراب بصورة مزدوجة، حيث استعمله في بعض معالجاته في سياق (الانفصال)، وفي مواقع أخرى في بحوثه يعطيه معنى (التخلي أو التنازل).

ففكرة الانفصال تقوم على أساس أن انفصال الفرد يكون بينه وبين الجوهر الاجتماعي غير الشخصي، ويؤدي هذا الانفصال إلى مفهوم الانفصال عن النفس أو الاغتراب الذاتي self-alienation، الذي يبحثه هيجل بوصفه متعلقا بالطبيعة الجوهرية للإنسان التي قد يحققها الإنسان وقد يخفق في تحقيقها. وهذا الاغتراب يشير إلى ما يحصل من تفاوت بين ظروف الفرد الحقيقية وطبيعته الجوهرية، الأمر الذي يقود إلى الشعور بالاغتراب الذاتي. أما مفهوم التخلي حسب استعمال هيجل فيقود إلى اتحاد الفرد بالجوهر الاجتماعي نتيجة لتنازله عن فرديته(النوري، 1979: 20-21).

وللقضاء على حالة الاغتراب لا بد من تحقيق وقيام بنية اجتماعية تندمج فيها مصالح الفرد والكل، حيث توصل هيجل إلى ضرورة قيام دولة مركزية قوية، كي يتمكن المجتمع

من أن يتحكم بمصيره، ويتمكن الإنسان من أن ينعم بالحرية الحقيقية وبالاندماج بين المصالح الخاصة والمصالح العامة. إن فكرة الاغتراب في جانبيها الإيجابي والسلبي قدمها هيجل من خلال تصور (العمل) في مجتمع الرأسمالية الصناعية. أما الجانب الإيجابي فيتمثل في نظرة هيجل إلى العمل على أنه نشاط خارجي يحقق الإنسان من خلاله ذاته، ويتحول بفضله من فرد جزئي إلى إنسان كلي اجتماعي. وأما الجانب السلبي فنراه في نظرة هيجل إلى العمل حيث ينفصل عن صاحبه إلى الحد الذي يصبح معه قوة مضادة له تسلبه ذاته، ولا يتعرف فيه على نفسه(الفيومي، 1988: 87). وقد ميز هيجل بين هذين المعنيين رغم ارتباط أحدهما بالآخر ارتباطا وثيقا، ولم يوحد بينهما كما ذهب إلى ذلك ماركس.

المرحلة الثالثة: مرحلة ما بعد هيجل:

تميزت مرحلة ما بعد هيجل ببداية النظرة الأحادية إلى مصطلح الاغتراب، حيث تم التركيز على جانبه السلبي فقط، على حساب جانبه الإيجابي، وأصبحنا لا نرى المصطلح إلا مقترنا في أغلب الأحوال بكل ما يهدد وجود الإنسان وحريته بالاستئصال أو التزييف، وأصبح الاغتراب كأنه مرض أصيب به الإنسان الحديث، عليه أن يقضي عليـــه ويبرأ منه(رجب، 1988: 16).

ومن أبرز الفلاسفة والمفكرين الذين جاؤوا بعد هيجل، والذين اهتموا بتناول مصطلح الاغتراب نجد فيورباخ، وماركس، وكيركيغارد، ومارتن هايدغر، وسارتر، وإيريك فروم، وغيرهم كثير. وسنتطرق فيما يلي لمعاني الاغتراب عند هؤلاء الرواد.

الاغتراب عند فيورباخ(Ludwig Feuerbach) (1804-1872):

تقوم معالجة فيورباخ للاغتراب أساسا على نقده للدين، حيث يعتبر الاغتراب على أنه "حالة من فقدان الوجود الأصيل أو الغربة Estrangement، ومن ثم فقد أصبحت لديه الكلمة الألمانية Entausserung التي تعني (التخارج) مرادفة لكلمة Entfremdung التي تعني (الغربة)(حماد،2005: 29) ، لأن الدين عند فيورباخ هو شكل منعزل من الإدراك الذاتي

ووهم ينبغي التغلب عليه، من خلال تتبعه للوصول إلى مصدره وموضوعه الحقيقيين، فالله عند فيورباخ هو مجرد وجود موضوعي للذات الإنسانية أو الطبيعة المطلقة للإنسان، التي تم تحريرها من القيود الفردية الطارئة، وبالتالي فإن الحقيقة الباطنية للإيمان بالله هي إيمان الإنسان بلا تناهي طبيعته الخاصة وحريته المطلقة (ماسترسن،2017 : 94) فقد خلق الإنسان على صورته الجوهرية صورة الله وبالتالي فإن "طبيعته الجوهرية لا تماثل طبيعته الفعلية، فانعكست الأولى على فكرة الله، وبالتالي فقد اتخذ شيئا يجب عليه احترامه مع يأسه من التطلع إلى الحصول على تلك الصفات، وفي تنازله هذا ينفي طبيعته الجوهرية(شاخت،1980: 127)، فالإنسان يغترب عن نفسه لأنه "يعكس من خلال إيمانه الديني أفضل ما لديه وفي نفسه من صفات على ما هو خارج ذاته، فأصبح يعبد هذا الشيء الذي يتحكم بشخصه(بركات، 2006: 38)، وهكذا فإن الاغتراب الديني في نظر فيورباخ هو الأساس لكل الاغترابات لأنه إذا كان الاغتراب هو انقلاب (الأنا) إلى آخر، فإن هذا الانقلاب يحدث أساسا في تحول الإنسان إلى الله(حنفي،1979: 43). يتبين من خلال هذا التصور أن الإنسان اغترب عن نفسه حين اعتبر أفضل ما لديه وفي نفسه من صفات خارج ذاته، فأصبح يعبد هذا الشيء الذي يتحكم بشخصه، فالدين في نظره هو اغتراب ذاتي، وأصبح الإنسان بذلك يضع نفسه تحت سيطرة مخلوقاته التي قد تتحكم به بدل أن يتحكم بها، وأصبح الإله مثالا وصورة للكمال، بينما تحول الإنسان إلى مثال للخطيئة والشر. وعليه فأنه "إذا كان هيجل يرى في الإنسان صورة الإله المغترب عن ذاته فإن فيورباخ يعكس هذه الصورة حيث يصبح الله هو الإنسان في حالته المغتربة، وبالتالي فإن الدين هو الاغتراب، بل هو صورة كاملة للاغتراب الكامل(زيادة و آخرون،1986: 82) .

الاغتراب عند ماركس (Karl Marx) (1818-1883):

كان لكارل ماركس الفضل في تحويل الاغتراب من مفهومه الفلسفي اللاهوتي إلى مفهوم آخر اجتماعي اقتصادي، "ومع أنه كان لهيجل وفيورباخ تأثير كبير ومباشر في ماركس إلا

أنه تجاوز المفاهيم المثالية للاغتراب في الفكر الأوربي، وحلله في سياقه التاريخي وفي العمل في المجتمعات الرأسمالية والأوضاع اللاإنسانية وقد برز مفهوم الاغتراب بشكل أساسي في مؤلفه (مخطوطات اقتصادية وفلسفية)، وهو لم يكن معنيا بظاهرة الاغتراب في حد ذاتها ليدرسها كظاهرة في وجودها وديناميتها، بل اهتم أساسا بمعالجتها في جانبها الاقتصادي.

والاغتراب حسب ماركس هو "حالة عامة في المجتمعات الرأسمالية التي حولت العامل إلى كائن عاجز وسلعة بعد أن اكتسبت منتجاته قوة مستقلة عنه ومعادية له (بركات،2006: 38-39) ، حيث أصبح الإنسان لا يمارس ذاته كقوة فعالة في عملية فهمه للعالم الذي لازال غريبا بالنسبة إليه، وبالتالي فإن الاغتراب هو "العملية التي يتحول فيها الإنسان إلى حالة التشيؤ، حيث يُستعبد من خلال العمل، ويصبح بقوة عمله سلعة تباع في الأسواق(وطفة، 1998: 247) ، ويؤكد ماركس على أن اغتراب العمل وإن كان قد وجد عبر التاريخ، فإنه قد وصل ذروته في المجتمع الرأسمالي، ذلك أن الطبقة العاملة هي الطبقة الأكثر اغترابا، لأن "العامل الذي لا يشارك في إدارة العمل، والذي يستخدم كجزء ملحق بالآلات التي يستخدمها يتحول إلى شيء عبر تبعيته لرأس المال(فروم، 1998: 68). يقول كارل ماركس: "إن العامل يزداد فقرا كلما زادت الثروة التي ينتجها، وكلما زاد إنتاجه قوة ودرجة، والعامل يصبح سلعة أكثر رخصا كلما زاد عدد السلع التي يخلقها(ماركس، 1974، 68)، وهنا يصبح العامل مغتربا عن ناتج عمله لأنه لا يختار القيام بهذا الناتج بل يكون مجبرا عليه من أجل توفير حاجياته الضرورية، أما الناتج فهو ليس له إنما هو للآخرين، كما يصبح مغتربا عن العمل ذاته، فيشير ماركس أن العمل "لا يعكس شخصية صاحبه واهتماماته، وهو خال من العفوية والطواعية والتوجيه الذاتي، إنه عمل مفروض وغير مرغوب فيه، وهذا لأن العامل يسلم طاقة عمله –مقابل أجر زهيد- إلى صاحب العمل، ويوافق على القيام بالعمل الذي يحدده هذا الأخير، وهنا تنفصم الصلـــــــة بين العـــامل وعمله من خلال تدخل صاحب العمل في توجيه نشاط العامل وفق ما يريده(مساعدية، 2013: 29).

وقد خلص ماركس إلى أن "الإنسان إذا كان قد أصبح مغتربا عن عمله اليومي فهو بالضرورة يكون قد اغترب أيضا عن نفسه وعن إمكانياته الخلاقة والأواصر الاجتماعية التي تتحدد من خلالها إنسانيته، وهذا في اعتقاده يعزله عن النوع الإنساني، وبالتالي يجرده من خاصيته البشرية(النوري، 1979: 21).

من خلال التحليل السابق لوضعية اغتراب العامل في المجتمع الرأسمالي، فقد خلص ماركس إلى أن هناك أربعة جوانب من هذا الاغتراب:

أ. اغتراب العامل في علاقته بمنتجاته، فهو يعمل ليس من أجل نفسه بل من أجل غيره، وهو الرأسمالي الذي يملك المصنع والقوة القانونية والاجتماعية، بينما العامل لا يملك سوى قدرته على العمل، وكلما ازداد غنى الرأسمالي ونفوذه، ازداد العامل عجزا وفقرا، فتصبح حياة العامل ملكا لغيره.

ب. اغتراب العامل عن عمله، "فهو لا يجد في عمله أي اكتفاء ذاتي وأي إبداع أو نمو"، بل إنه لا يتمتع بحريته إلا في وظائفه الجسدية: الأكل والشرب والتناسل.

ج. اغتراب العامل عن الطبيعة نفسها، "بأن يحولها إلى وسيلة لسد حاجاته المادية كما العمل نفسه، وتصبح حياته وسيلة للعيش ولبقائه الجسدي".

د. اغتراب الإنسان في علاقته بالإنسان الآخر، "فإذا كان نشاطه لغيره فلا بد من أنه يعمل في خدمته وتحت سيطرته وقهره، بل إن كل اغتراب سواء أكان اغترابا عن ذاته أم طبيعته أم إنتاجه، فإن ذلك يتجسد في علاقات الاضطهاد والتسلط والاستغلال مع الآخرين في العالم الواقعي الحقيقي، بل يضاف أيضا إلى ذلك أن الملكية الخاصة وتوزيع العمل في النظام الرأسمالي يعزلان الأفراد بعضهم عن بعض (بركات، 2006: 40). ويتم التعامل بين الناس فقط من خلال السلع التي يتبادلونها وليس فيما بينهم كأشخاص.

وبالتالي فقد رأى ماركس أن العامل في ظل النظام الرأسمالي يتحول إلى قوة خارجة عن إرادة العامل، مستقلة عنه، معادية له، متحكمة بصيرورته، ومضادة لحياته وإنسانيته.

الاغتراب عند ماكس فيبر (Max Weber)(1864-1920):

إذا كان ماركس قد ركز على اغتراب العامل، وتحدث عن حالة عجز الأفراد في المجتمعات الرأسمالية، فإن عالم الاجتماع الألماني **ماكس فيبر** قد رأى على خلاف ذلك أن هذا العجز هو حالة عامة ولا تقتصر على العامل فحسب بل تتصف بها جميع العلاقات الاجتماعية، فيؤكد أن العالم والجندي والباحث والأستاذ الجامعي وغيرهم لا يسيطرون على وسائلهم ومنتجاتهم بفعل كونها مستقلة عنهم في كثير من الأحيان، كذلك يمكن القول إن المواطن عاجز تجاه الدولة حتى في المجتمعات الديمقراطية، فهي تسيطر عليه في واقع الأمر، وليس هو من يسيطر عليها فعلا (بركات:2006: 42). هذه الحالة من الاغتراب يكون فيها الأفراد عاجزين عن المشاركة في صنع القرارات المهمة، وكثيرا ما يتفاجأ المواطن بالقرارات والأحداث السياسية بما فيها القرارات التي تخص تقرير مصيره.

الاغتراب عند الوجوديين:

يقوم الفكر الوجودي على الإيمان المطلق بالوجود الإنساني، باعتبار الإنسان أقدم شيء في الوجود، و أن الوجود يسبق الماهية، وأن الإنسان هو خالق نفسه وصانعها، على ضوء هذا الاختيار الحر، فهو الذي يقرر مصيره وسلوكه(مساعدية، 2013 : 34)، ويعمل الوجوديون من خلال هذا المذهب على إعادة الاعتبار الكلي للإنسان ومراعاة تفكيره الشخصي وحريته وغرائزه ومشاعره، فهم يدافعون عن الحرية الفردية والكرامة الإنسانية ويهاجمون كل ما يهددهما بالزوال.

ويحتل الاغتراب في تأملات الوجوديين وتحليلاتهم الوجودية مكانا مرموقا، حيث ينظرون إليه بوجه عام على أنه ضرب من ضروب الوجود الزائف، غير الأصيل وغير المشروع، والذي يسقط فيه الإنسان سقوطا يفقد معه حريته، مناط إنسانيته وجوهر وجوده(رجب، 1988: 18).

ويعد الفيلسوف الدانماركي **سورين كيركغاردSören Kierkegaard (1813-1855)** ، أول الرواد المؤسسين للوجودية، وهو وإن لم يكن قد استعمل مصطلح الاغتراب إلا أنه

يشير إلى الفكرة في بعض كتبه، حيث تعرض لقضية اغتراب الإنسان الحديث من خلال نقده لضياع الفرد في داخل الحشد، وفقدانه لتفرده وحريته(حماد، 2005: 98)، فهو مغترب عن ذاته وعما حوله، فالعلاقات الاجتماعية في نظره تكون عادة مشوهة، والوجود اليومي بين الآخرين هو وجود زائف لأنه "لا يتضمن حقيقة الذوات التي تشارك فيه ولا ينبع من هذه الذوات ككل، والطريقة التي يتجمع بها الناس عادة لا تستحق اسم الجماعة إن كيركغارد لم يجد تعاطفا مع الجمهور، أو ما عبر عنه بالحشد، حيث يقول: "إن الحشد في مفهومه ذاته، هو الباطل Untruth، وذلك بسبب أنه يحيل الفرد تماما إلى شخص غير مسؤول، لا يتوب ولا يندم، أو على أقل تقدير يضعف إحساسه بالمسؤولية بأن يحيله إلى مجرد كسر، (أو جزء ضئيل من كل)(ماكوري، 1982: 133)، وعليه، فهو يرى أن الجماعة تسيطر على الفرد بطريقة مرعبة وتكتسب سلطة مطلقة عليه، وبالتالي فإن الإنسان الحديث عندما يضحي بحريته في مقابل الطمأنينة الزائفة للجمهور، فإنه يفقد ذاته كإنسان، ويصبح ذلك الفرد الذي لم يعد ينتمي إلى الله أو إلى ذاته، أو إلى فئته، أو علمه، إنه يعي فقط أنه ينتمي إلى تجريد يخضع له فكريا مثلما يخضع العبد للأرض التي يعمل فيها.

إن نظرة كيركغارد للاغتراب الإنساني باعتباره ضياعا للذات الإنسانية في داخل المجموع، ظلت مسيطرة على فلاسفة الوجودية من أمثال "مارسيل Marcel، الذي وقف ضد سلطة الدولة ومسخ هوية الإنسان، وجاسبرزJaspers الذي يحتج على استغراق الإنسان في الآلة التي هي طابع الدولة الحديثة(حماد، 2005: 100). فالتكنولوجيا من حيث هي ظاهرة تميز عصرنا الحالي هي من بين الموضوعات التي اهتم الوجوديون بدراستها لارتباطها بالحرية والاغتراب، "فإذا كان ماركس قد نظر إلى التكنولوجيا على أنها يمكن أن تكون قوة تحرير الإنسان والطبيعة، فإن الوجوديين قد وجهوا انتباههم إلى الآثار المدمرة للتكنولوجيا على إنسانية الإنسان وحريته، فمتى سيطرت التكنولوجيا على الإنسان تحول

إلى مجرد شيء مستأصل الإنسانية(رجب، 1988: 18)، فالتكنولوجيا والآلة عند أغلبهم هي من بين عوامل اغتراب الإنسان المعاصر وسقوطه.

وقد اهتم **مارتن هايدغرMartin Heidegger (1889-1976)** بفكرة الوجود الزائف وغير الأصيل، وهو الوجود مع الآخرين الذي ينتج في غالب الأحيان علاقات اجتماعية بشرية مشوهة، وقد اختار هايدغر مصطلح «هم» «they» للدلالة على الآخرين، "ويمكن أن تعني كل شخص أو أي شخص أو لا أحد، إن كلمة «هم» تعني الآخرين لكنهم آخرين غير محددين، وإن كانوا مع ذلك يسيطرون على حياتنا(ماكوري، 1982 : 135). وقد ميز هايدغر في كتابه (الوجود والزمان) بين أسلوبين أو طريقتين للحياة، أي نوعين من الوجود يصف الأول بالوجود الحقيقي أو الأصيل Authentique، ويصف الآخر بالوجود الزائف Inauthentique، فالوجود الأصيل هو "ذلك الوجود الذي يقرر ذاته، ولا تقرره علاقات المرء بالآخرين، إنما يستمد شكله واتجاهه من قرارات وخيارات الذات(مساعدية، 2013: 37) . فالوجود الإنساني يكون وجودا أصيلا بقدر ما يختار شخصيا ويقرر وجوده بنفسه ويعي واقعه ويختار ويصنع قراراته بنفسه بمعزل عن التقاليد المتبعة. أما الوجود الزائف فهو "الوجود الذي يتخلى عن مسؤوليته اتجاه اختيار إمكانياته ويترك لغيره هذه المهمة، إنه وجود يخضع للمجهول الذي نسميه بالناس، أو الجمهور أو الحشد، لذلك فإن الوجود الزائف يحيا حياة التوسط أو الحياة العامة التي تلغي كل الفروق، وتقضي على كل شعور بالأصالة، وتنزع عن الإنسان كل ما لديه من قدرة على تحمل المسؤولية والاستقلال بالرأي واتخاذ القرار(حماد، 2005: 122)، فينفي المرء وجوده ويصبح واحدا من الآخرين «الهم» الذي يستبعد الاختيار ويزيل عبء المسؤولية عن الفرد، ويسطح كل شيء ويهبط به إلى مستوى الوسطية ويحدد معايير الذوق والأخلاق(ماكوري، 1982 : 135)، فيعيش الإنسان حالة الاغتراب بقدر ما يمتثل لعادات وتوقعات الآخرين، ويفشل في تحقيق وجوده الأصيل.

كما يرى هايدغر أن الوجود الزائف هو الوجود المستغرق في الحاضر، حيث يتناول فكرة الوجود الزائف والوجود الأصيل من خلال قضية الزمن، حيث أن "الوجود الأصيل هو الوجود الذي يتزمن ابتداء من المستقبل، وأن الموت هو وحده الكفيل بالكشف عن طبيعة هذا المستقبل.

لا ينظر هايدغر إلى الموت على أنه نهاية الإنسان فحسب، بل "مع الموت يتم الشعور بالفردية إلى أقصى درجة، إذ يشعر الإنسان أنه يموت وحده ولا أحد يشاركه هذا الموت، بل لا يستطيع أحد أن يحمل عنه عبء موته، لذلك فإن القلق من الموت هو ما يشعر المرء بالفردية إلى الحد الأعلى من الشعور (حماد، 2005: 123).

إن هايدغر قد استخدم مصطلح الغربة Entfremdung للتعبير عن الحالات التي يتجنب فيها الوجود البشري التفكير في الموت، وعليه، فإن الاغتراب بالنسبة لهايدغر مرتبط بالوجود الزائف أو السقوط، وهو يتمظهر في ثلاث ظواهر هي:

- "اللامبالاة أو عدم التفكير في الموت.
- الاستغراق في المستقبل، وكذلك الاستغراق في الحاضر والماضي وما يتوافر من إمكانيات لتحقيق الوجود الحقيقي، أو انشغال المرء بعيدا عن الوجود الخاص الحقيقي وانزلاقه نحن الوجود الزائف.
- الاغتراب ناشئ من الحياة الثقافية السائدة، والتي تروج للفكر السطحي، وعدم الاهتمام بالوجود الأصيل، كما عبر عن ذلك في (الوجود والزمان)، إن الاغتراب عنده يتلازم مع غياب الوجود الأصيل للذات واغترابها عن كينونتها ويصبح الوجود غريبـــا أيضا(جمعة،2011: 157) .

أما عند **جون بول سارتر Jean-Paul Sartre (1905-1980)**، فإن الاغتراب يتجلى من خلال غموض العلاقة البشرية وتصارعها في علاقة الأنا بالآخر، أو بالغير، وهو ما سماه كيركيغارد «الحشد» أو ما أطلق عليه هايدغر «الهُم»، حيث يقول سارتر "الغير هو الموت المستور لإمكانياتي(سارتر، 1966: 444)، إذ يرى أن "الإنسان يغترب عن نفسه ليس

فقط في مواجهة العدم، بل أيضا من خلال علاقته مع الآخر، إنه في هذه الحالة قد يختبر نفسه من خلال نظرة الآخر إليه، أي كموضوع أو كشيء(بركات،2006: 47).

وقد استعمل جون بول سارتر مصطلح الاغتراب في عدد من مؤلفاته، منها (الوجود والعدم) و (نقد الفكر الجدلي)، حيث يرى أن نظرة الغير تجعل الفرد شيئا أو موضوعا وتسلب ذاته وإمكانياته، فيتحول وجوده إلى سقوط نحو الموضوعية، ويتمثل هذا الاستلاب من خلال ردود الفعل الذاتية ضد نظرة الغير كالخوف والخجل والكبرياء، حيث يقول أن الخجل "هو تعرف كوني أنا تماما هذا الموضوع الذي ينظر إليه الغير ويحكم عليه، إني لا أستطيع أن أخجل إلا من حريتي من حيث هي تفلت مني كي تصبح موضوعا معطى"، ويقول أيضا: "إن نظرة الغير تجعلني أوجد وراء وجودي في هذا العـــالم (سارتر، 1966: 439).وهكذا يرى سارتر أن الإنسان يغترب عن ذاته في علاقته مع الآخرين، وجميع المحاولات التي تبذل للوصول إلى وجود أصيل مع الآخرين هي محاولات محكوم عليها بالفشل.

يتضح من خلال هذا التحليل أن الوجوديين يتجهون إلى إظهار العلاقات بين الأشخاص على أنها تظل في العادة علاقات زائفة وغير أصيلة، فهم يحبذون المذهب الفردي بوصفه تمردا على هذا الزيف، ومع ذلك فإن "معظم الفلاسفة لم يحددوا شكل الوجود الأصيل مع الآخرين بطريقة واضحة المعالم (ماكوري، 1982: 138).

الاغتراب عند إميل دوركهايم:

يعد العالم الفرنسي إميل دوركهايم أحد أهم المفكرين الذين تحدثوا عن الاغتراب من خلال حالة الأنوميAnomie، التي تصيب المجتمع، "وهي حالة انهيار المعايير التي تنظم السلوك وتوجهه(خليفة،2003: 37)، إذ تعد القيم والمعايير محور شخصية الفرد، وهي جزء من ثقافة المجتمعات، حيث تصبح المعايير والقيم مصدرا للضغط على الأفراد لكي تتشابه أهدافهم المختلفة مع أهداف الجماعة، بحيث تمثل جملة القواعد الاجتماعية والعادات المعترف بها، والاتجاهات السائدة التي تعد مرشدا للفرد داخل المجموعة،

وتحدد سلوكه المقبول فيها، فهي التي تحدد ما هو صواب، وما هو خطأ، وما يجوز وما لا يجوز، فكل ثقافة تنطوي على مجموعة من القيم والمعايير التقليدية التي تشكل جزءا مهما من الشخصية الإنسانية، هذه المعايير هي قواعد تحكم السلوك وتضبط وسائل الوصول إلى الأهداف.

واللامعيارية أو كما سماها دوركهايم: الأنومي، هي حالة فقدان وتلاشي المعايير والقيم السائدة بالمجتمع، وقد عرفها بأنها "اختلال المعايير وتفككها أو اضطرابها، وهو ما عبر عنه بالفراغ الأخلاقي الذي يفضي إلى البلبلة وضعف الانتماء الاجتماعي، يجب فقط ضبطه وإصلاحه(عبد المعطي، 1981: 87). فالتنظيم الاجتماعي كما يراه دوركهايم يشكل جهازا ضابطا لسلوك الأفراد في المجتمع، وحين يختل هذا الجهاز يضطرب في تأدية وظيفته الضابطة، وينطلق الأفراد وراء تحقيق أهدافهم متجاوزين كل المعايير، وعندئذ تفقد الجهة التقليدية الضابطة قدرتها على تصحيح مسيرة الأفراد وضبط سلوكهم، ولذلك يتعرض المجتمع لحالة من الشذوذ والانحراف وعدم الانتظام.

لقد أظهر دوركهايم من خلال مناقشته لتقسيم العمل، أن اللامعيارية تعد عاملا مسؤولا عن أشكال الاضطراب الاقتصادي والصراع الطبقي، كما استطاع في مناقشته لظاهرة الاغتراب أن يطور فكرته، حيث ميز بين (التكامل) و(التنظيم) باعتبارهما بعدي التضامن الاجتماعي، ويعني بالتكامل: قوة الصلة التي تربط الفرد بالمجموعات الاجتماعية، وكان يقيسه على تدريج يبدأ من (الأنانية) إلى (الإيثارية)، كما أنه كان يقصد بالتنظيم: "الدرجة التي تستطيع من خلالها قواعد المجموعة ومبادئها أن تنظم رغبات وتطلعات الأفراد، وكان دوركهايم يقيس ذلك على تدريج يبدأ من (اللامعيارية) وينتهي ب(الجبرية) ، وعند تحديده لأنواع الانتحار كان الانتحار اللامعياري أحد هذه الأنواع، وهو "ذلك النوع من الانتحار الذي ينجم عن غياب التنظيم المعياري الذي وصفه دوركهايم باعتباره ضياعا، وهو حالة من انعدام القواعد والمعايير، أو غياب أي تنظيم تحققه قواعد مشتركة. (سكوت،2009: 324-325)

إن اللامعيارية أو الأنومي هي "الموقف الذي تتحطم فيه المعـــــايير الاجتماعية المنظمة لسلوك الفرد، حيث تصبح هذه المعايير غير مؤثرة ولا تؤدي وظيفتهـــا كقواعد للسلوك(خليفة، 2003 :38).

الاغتراب عند إيريك فرومErich Fromm(1900-1980):

يعد فروم من المفكرين الذين أعطوا لدراسة الاغتراب أهمية خاصة لا تقل عن دراسة أي مشكلة من المشكلات الفلسفية الأخرى، وقد تحدث عنه في كثير من مؤلفاته بشكل أكثر دقة وعمقا، حيث تناوله من زاوية تكوين الشخصية وتطورها، "فالإنسان كينونة جوهرها الروح والعمل والانتماء، وكل ما من شأنه أن يمس هذه الأبعاد الأساسية لجوهر الشخصية يدفع الشخصية إلى حالة اغتراب واستلاب. فالاغتراب هو الوضعية التي ينال فيها القهر والتسلط والعبودية من جوهر الإنسان، وهو الحالة التي تتعرض فيها إرادة الإنسان أو عقله أو نفسه للاغتصاب والقهر والاعتداء والتشويه. وبالتالي فإن أدوات الاغتراب هي مختلف أدوات القهر وكل ما من شأنه أن يعاند نمو الشخصية الإنسانية وازدهارها وتفتحها. وتتبدى مظاهر الاغتراب في أشكال أحاسيس مفرطة بالدونية، واللامبالاة، والقهر، والضعف، والقصور، والسلبية والانهزامية(وطفة 1998: 247)، إن الاغتراب بالنسبة لفروم هو "نمط من التجربة يرى الفرد نفسه فيها كما لو كانت غريبة عنه(خليفة ،2003: 39)، ويمكن القول إنه أصبح غريبا عن نفسه، إنه لم يعد يعيش كمركز لعالمه وكخالق لأفعاله، بل إن أفعاله ونتائجها تصبح سادته الذين يطيعهم، أو الذين حتى قد يعبدهم(حماد:2005، 59).

يتضح من خلال هذا المفهوم أن فروم يتحدث عن قضية اغتراب الإنسان عن ذاته، وهي الفكرة المحورية في أغلب ما كتبه فروم عن الاغتراب، حيث تناول هذه الفكرة خصوصا من خلال فكرة أخرى تعد جوهر الاغتراب، وهي فكرة الصنمية، وهي ليست ظاهرة منحصرة في المجال الديني، أي علاقة الإنسان بربه فحسب، بل هي محور مهم في

بيان الاغتراب عن الذات وتماهي الذات بالأشياء أو الأفكار أو الشخصيات، وكل (آخر) يكون بالنسبة للذات أشبه بالإله أو الشيء المقدس(جمعة،2011: 178)، وهي لا تعني كون الإنسان يعبد كثيرا من الآلهة بدلا من إله واحد، بل تتمثل في أن الأوثان هي من عمل يدي الإنسان: إنها أشياء يقوم الإنسان بعبادتها والركوع لها، إنه يقوم بعبادة الشيء الذي خلقه هو بذاته، وإنه بذلك يحول ذاته إلى شيء وينقل إلى الأشياء التي خلقها خصائص حياته، كما أنه بدلا من أن يمارس حياته كفرد خالق، فإنه يكون في حالة تواصل مع ذاته فقط، عبر عبادة الوثن، وبهذا يصبح الإنسان منخلعا عن قوى حياته، عن ثروة طاقاته، ويكون متواصلا مع ذاته في طريقة خضوع غير مباشر للحياة المجمدة في شكل وثن (فروم، 1998، 63-64).

إن الإنسان وفق فروم يبدع أوثانا يسجد لها وأصناما يعبدها، فيتنازل عن نفسه إزاء استسلامه لقيم المجتمع السائدة الخاصة بالمجتمع الصناعي الحديث، لأن هذا الأخير يؤثر على الإنسان ويتحكم فيه، ويحوله إلى إنسان مستهلك، هدفه الوحيد هو أن يملك المزيد، وهذا المجتمع "يقدم أشياء عديدة لا فائدة فيها، وبنفس القدر يقدم العديد من الناس الذين لا فائدة منهم، والإنسان باعتباره ترسا في ماكينة الإنتاج يصبح شيئا ويكف عن أن يكون إنسانا(فروم ، 2010: 70)، إنه إنسان فاقد لذاته الأصيلة وبالتالي فهو مغترب عنها، وقد ساير فروم ماركس في تفسيره لاغتراب الذات كنتيجة حاصلة لاغتراب العمل، إذ يرى أن ممارسة الإنسان لعمله بطريقة آلية أو بطريقة اضطرارية للهروب من الوحدة والعزلة تستحيل به إلى الاغتراب عن ذاته، كما يؤدي اغتراب الناتج بدوره إلى نوع من الصنمية، (صنمية الإنتاج)(مساعدية، 2013: 39).

لقد ميز فروم في دراسته لاغتراب الذات بين الذات الأصيلة والذات المزيفة، "فأوضح أن الذات الأصيلة هي التي يتسم صاحبها بأنه شخص مفكر، قادر على الحب والإحساس والإبداع، أما الذات الزائفة، فهي التي تفتقر إلى جميع هذه الصفات أو بعضها، ويبدو أن مفهوم الذات الأصيلة يرادف عند فروم مفهوم الذات غير المغتربة التي حققت وجودها

الإنساني المتكامل، أما الذات الزائفة فهي التي اغتربت عن نفسها وانفصلت عن وجودها الإنساني الأصيل(خليفة،2003: 41) . فاغتراب الذات عند فروم يكون من خلال فقدان الإنسان لسمة واحدة أو لجميع سمات الذات الأصيلة، وجذور فكرة الذات الأصيلة والذات الزائفة تعود للفكر الوجودي الذي تأثر به إيريك فروم، وبخاصة كيركيغارد وهايدغر اللذين سبقت الإشارة إليهما، حين عالجا فكرة الوجود داخل الحشد باعتباره وجودا زائفا، في مقابل الوجود المنعزل الذي يرادف الوجود الأصيل الذي يستطيع الفرد من خلاله تحمل العزلة والقلق وممارسة الحرية.

يتبين من خلال ما سبق أن فروم ينظر للاغتراب على أنه ظاهرة سلبية، كما يعتبر أن الإنسان المغترب هو إنسان مريض يشعر بالاغتراب عندما لا يستطيع التحكم في أفعاله، فيستسلم لها ولنتائجها، وبالتالي يشعر بأنه لا معنى لحياته، ويصبح نتيجة لذلك سلبيا لا يرتبط بالعالم على نحو فعال، وهو مضطر إلى الخضوع لأوثانه، "فيشعر بأنه بلا حول ولا قوة، وأنه وحيد، وأنه قلق، وليس لديه إلا شعور ضئيل بالتكامل أو الهوية الذاتية، والامتثال يبدو أنه الوسيلة الوحيدة لتجنب القلق الذي لا يطاق، بل حتى الامتثال لا يرفع عنه دائما عبء قلقه(فروم،2010: 71).

خاتمة.

بعد هذا التتبع التاريخي الدقيق لتطور مفهوم الاغتراب يمكن القول: إن التصور الذي يقدمه إيريك فروم لمفهوم الاغتراب باعتباره خروجا للإنسان عن ذاته، مع ما يرتبط بهذا الخروج من قلق وسلبية وفقدان للقدرة والسيطرة وانعدام للفعالية والمعنى في الحياة، هو تصور يجعل من الاغتراب مرض العصر بامتياز، إذ تتفشى أعراضه بشكل كبير في أوساط الشباب والمراهقين، بما يعانونه من عجز وضياع، وانفصال عن ذواتهم الأصيلة، وانتزاع وخروج عن الهوية الذاتية، وسلبية وانعدام للمعايير.

ولعل هذه الحالة راجعة بالأساس إلى وجود الفرد داخل بنية اجتماعية متنوعة ومتعددة الروافد والثقافات، لا تعترف بالحدود والحواجز الثقافية بين الأمم، متغيرة

بشكل متسارع بفعل التطور التكنولوجي الهائل، المفترس والكاسح، والذي فقد فيه الفرد وجوده الأصيل وضحى بحريته في مقابل وجود زائف في بنية اجتماعية غريبة عنه.

لائحة المراجع:

1) إبراهيم، الفيومي،(1988).ابن باجة وفلسفة الاغتراب،ط1 ، بيروت، محمددار الجيل .
2) ابن قيم، الجوزية،(2003). مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي،ط7 ، ج3 ، بيروت، دار الكتاب العربي.
3) أبو حيان، التوحيدي(1982)، الإشارات الإلهية، تحقيق وداد القاضي،ط2، بيروت دار الثقافة.
4) أحمد، أبو زيد،(1979). الاغتراب، مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد الأول، الكويت ،وزارة الإعلام.
5) إيريك، فروم،(1998). مفهوم الإنسان عند ماركس، ترجمة محمد سيد رصاص، ط1،دمشق سورية دار الحصاد للنشر والتوزيع.
6) إيريك، فروم،(2010). ثورة الأمل، نحن تكنولوجيا مؤنسنة، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد،ط1،دار الكلمة LOGOS.
7) باتريك، ماسترسن،(2017). الإلحاد والاغتراب، ترجمة هبة ناصر،ط1،المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية.
8) جمال الدين، بن منظور، (1300ه). لسان العرب، بيروت، المجلد الأول، دار صادر.
9) جون، بول سارتر،(1966). الوجود والعدم، ترجمة عبد الرحمن بدوي،ط1 ، بيروت منشورات دار الآداب.
10) جون، ماكوري،(1982)، الوجودية، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مجلة عالم الفكر، الكويت ،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
11) حسن، حماد،(2005). الإنسان المغترب عند إريك فروم، القاهرة،دار الكلمة.
12) حسن، حنفي،(1979). الاغتراب الديني عند فيورباخ، العدد1، مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد الأول، الكويت وزارة الإعلام.

13) حليم، بركات،(2006). الاغتراب في الثقافة العربية، متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، ،ط1، بيروت ،مركز دراسات الوحدة العربية.

14) ريتشارد، شاخت،(1980) الاغتراب، ترجمة كامل يوسف حسن، ط1، بيروت ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

15) صحيح البخاري،(2005). ط1 ، دمشق، دار ابن كثير.

16) صحيح مسلم،(2006) .ط1، الرياض.

17) عبد اللطيف، محمد خليفة،(2003). دراسات في سيكولوجية الاغتراب ، القاهرة، دار غريب.

18) عبد اللطيف، محمد خليفة،(2003). دراسات في سيكولوجية الاغتراب،القاهرة، دار غريب.

19) عبد الله، الأنصاري الهروي،(1988). منازل السائرين، بيروت ، دار الكتب العلمية.

20) عبد المنعم، الحنفي،(2003)،المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة،ط3،القاهرة ،مكتبة مدبولي.

21) علي، أسعد وطفة،(1998). المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية، العدد27 مجلة عالم الفكر.

22) قاسم، جمعة،(2011). النظرية النقدية عند إيريك فروم،ط1 ، بيروت، منتدى المعارف.

23) قيس، النوري،(1979). الاغتراب اصطلاحا ومفهوما وواقعا، مجاد10 العدد الأول،مجلة عالم الفكر، الكويت ،وزارة الإعلام.

24) كارل، ماركس،(1974). مخطوطات كارل ماركس لعام 1844، ترجمة محمد مستجير مصطفى، القاهرة ،دار الثقافة الجديدة.

25) لزهر، مساعديه،(2013)، نظرية الاغتراب من المنظور العربي والغربي،الجزائر دار الخلدونية.

26) مجد الدين، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي،(2005). القاموس المحيط، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، ط8 ، ج 1 ،بيروت لبنان، مؤسسة الرسالة.

27) محمود، رجب،(1988) الاغتراب، سيرة مصطلح،ط3 ، القاهرة، دار المعارف.

28) معن، زيادة وآخرون،(1986) الموسوعة الفلسفية العربية،ط1، المجلد الأول، معهد الإنماء العربي.

29) ميخائيل، إنوود،(2000). معجم مصطلحات هيجل، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، المركز المصري العربي.

30) ميشيل، مان،(1999). موسوعة العلوم الاجتماعية، ترجمة عادل مختار الهواري وسعد عبد العزيز، الإسكندرية،دار المعرفة الجامعية.